

الورق والورقة في الحضارة الإسلامية

دكتور محمد عبد الحفيظ

الصلة بين الورقة والحضارة صلة وثيقة دائمة ، والنسبة بين استهلاك شعب ما للورق ومبلغ نصيبه من الحضارة نسبة ثابتة مطردة ، فبقدر إحساسه بالحاجة إلى هذه المادة ، واستجابته لهذا الإحساس ومضيه معه ، وقيامه بهذه الحاجة ، يكون حظه من الحضارة بجانبها : المادي والمعنوي . وقد أولع الناس باستنباط المقاييس المختلفة التي يعاينون بها حضارة هذا الشعب وذاك ، ويوازنون بها بين مستوى الحياة هنا ومستوى الحياة هناك ، كلما جدد جديد وذاع في عالم العلم والصناعة والاختراع . فمرة هو العسلب ، وأخرى هو البترول ، وثالثة هو الكهرباء ، وأخيراً هو الذرة ، إلى غير ذلك . ولكن مقياس الورق مقياس قديم جديد ثابت دائم ، ظل - وسيظل أمداً طويلاً فيما نعتقد - معياراً صحيحاً دقيقاً للحضارة في صورتها المادية والمعنوية .

وللورق في الحضارة الإسلامية مكانة ظاهر ممتاز حقاً ، يشير العجب ويبعث على الإعجاب ، وله فيها تاريخ رائع حافل ، نستطيع أن نتبين في مراحلها ووجوهه المختلفة المعالم البارزة لهذه الحضارة ، كما نستطيع أن نعرف فيها كثيراً من العوامل المؤثرة في تطور

هذه الحضارة وتوجيهها . وان يكن - مع هذه المسكاة التي لا شك فيها - تاريخاً مغموراً ،
توزعت أجزاءه ، وتبعثت أشلائه ، وتقطع سياقه ، وذهب في غمار القرون . ولكننا
سنحاول هنا أن نجو بعض وجوه ذلك التاريخ ، بأف تدبين خطوطه الكبرى ومعاله
الرئيسية ، ولعلنا نستطيع بذلك أن نجو صفحة من أجد صفحات الحضارة الاسلامية ،
وأقواها تعبيراً عنها ، ودلالة عليها .

— ١ —

ونحن حين نطلق كلمة « الورق » فانما نعني بها ذلك الجنس الذي يشمل أنواعاً مختلفة
المادة والصورة ، مما جعل ليكتب فيه ، على نحو ما نرى عند ابن النديم في فهرسته في
الباب الذي جعله لـ « الكلام عن أنواع الورق » . وقد نخصص ذلك الجنس العام ،
فنطلق كلمة « الورق » على ما دخلته الصناعة وهذبتة أساليب الحضارة ومقتضياتها ، نخرج
بذلك عن تلك الصور البدائية الفجة التي تتمثل في مثل أكتاف الابل والخاف والعسب
وما إليها ، والتي نراها في مثل قول لبيد يصف كاتباً :

متعود لحن يعيد بكفه قلما على عسب ذبلن وبان^(١)

وذلك على النحو الذي نراه عند القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » في الجملة التي
جعلها « في بيان أسماء الورق الواردة في اللغة ومعرفة أجناسه » ، متجاوزاً تلك الانواع
البدائية التي إنما تذكر - في حقيقة الأمر - من باب الاستقصاء التاريخي .

ومهما يكن من أمر في إطلاق كلمة الورق فهي كلمة عامة يندرج تحتها أنواع مختلفة ،
على النحو الذي سنرى تفصيل القول فيه هنا . ولكن هذه الكلمة الشائعة التي تتسع
دلالتها لتلك الانواع المختلفة هي أول ما يلفت نظر الباحث في هذا الموضوع من ناحية

(١) الأمل ١ : ٥ .

تاريخ إطلاقها ، إذ كنا لا نعلم في حقيقة الأمر أنها كانت مستعملة بهذا الإطلاق أو لشيء من هذه الدلالة في العصر الجاهلي أو الإسلامي الأول . إنما كانت تعني ورق الشجر ، كما جاءت متعينة الدلالة على هذا في القرآن في غير موضع : « ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ^(١) » « وطفقا يخلصان عليها من ورق الجنة ^(٢) » ، « فأكل منها فبدت لها سواها وطفقا يخلصان عليها من ورق الجنة ^(٣) » . ومن كلمة الورق بهذا المعنى جاءت مشتقاتها في مثل : ورقت الشجرة وأورقت ، فهي مورقة وورقة ووريقة ووارقة ، وفي مثل تورق الظبي أي أكل الورق ، كما جاء في قول امرئ القيس :

وقدر كنت وسط السماء نجومها ركود نوادي الربرب المتورق

ومن هذا المعنى الأول لكلمة الورق جاءت معانيها الأخرى ، من إطلاقها على المال من إبل وغنم ودراهم ، كما في قول كثير :

فما ورق الدنيا بباق لأهله ولا شدة البلوى بضربة لازب ^(٤)

وعلى ما استندار على الأرض من الدم ، وعلى نضرة الشباب ، إلى غير ذلك من المعاني التي توردها كتب اللغة ، ونراها في آثار الجاهلية والعصر الإسلامي الأول . وليس بين

(١) سورة الأنعام ، آية ٥٩ . (٢) سورة الأعراف ، آية ٢٢ .

(٣) سورة طه ، آية ١٢١ .

(٤) إصلاح المنطق ، ص ٣٢٠ ، ط دار المعارف ١٩٤٩ . ويرى الأب انتاس الكرملي أن

إطلاق كلمة الورق على الدراهم لا يرجع إلى ذلك الأصل . وإنما يرى أن هذه الكلمة بهذا المعنى فارسية الأصل أو يونانية ، من (بره) أو (باره) الفارسية ومعناها قطعة ، « ومنها البارء التي كانت مستعملة ولا تزال تستعمل في ديار الترك ، لنقد صغير من النحاس » أو من الكلمة اليونانية Baros ومعناها ثقل أو حمل ، ومعلوم أن أصل الأوزان والائتال مأخوذ من ثقلها . وهكذا وضعوا الأثقال والرطل والأوقية إلى غيرها . انظر ص ١٦٣-١٦٤ من كتاب النقود العربية وعلم النميات ، المطبعة المصرية ، ١٩٣٩ .

هذه المعاني المختلفة ذلك المعنى الذي غلب على الكلمة فيما بعد ، حتى كاد يهدر كل تلك المعاني .

وقد يقع الباحث في الشعر الجاهلي والآثار الإسلامية الأولى على بعض النصوص التي توهم استعمال كلمة « الورق » في ذلك المعنى ، كهذا البيت من شعر ذي الخرق الطهوي :

لما رأت أبي جاءت حلوبتها هزلى عجافاً عليها الريش والورق^(١)

ولكن الأشبه أن تكون كلمة الورق هنا بمعنى ورق الشجر . على أن هناك رواية أخرى تضع كلمة « الخرق » موضع كلمة « الورق » ، وقيل إنه من أجل هذا البيت - بهذه الرواية - سمي الشاعر « ذو الخرق » .

ولعل بيت حسان :

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحي في الورق القشيب

أقوى إيهاماً ، لولا أن هناك رواية أخرى تضع كلمة « الرق » موضع كلمة « الورق » بل لولا هذه الرواية لكان في البيت دلالة قوية على استعمال كلمة الورق بذلك المعنى في ذلك العصر ، ولكن وجود هذه الرواية يسقط هذا الدليل ، إذ كان قد تطرق إليه الاحتمال ، فبطل به الاستدلال .

وهناك شبهة أخرى تعرض فيما أورده أبو موسى الأصبهاني في كتابه « غريب الحديث » من حديث عرفة ، أنه « لما قطع انفه يوم الكلاب اتخذ أنفاً من ورق فانتن ، فاتخذ أنفاً من ذهب » . والذي يجعل من هذا النص مثاراً للشبهة هو انكار الأصمعي أن يكون المراد بالورق ، في هذا النص ، الفضة ، كما هو المتبادر ، وقوله في توجيه انكاره هذا : « انه إنما اتخذ أنفاً من ورق ، بفتح الراء ، أراد الرق الذي يكتب فيه ، لان الفضة لاتنتن » . فان صح هذا الذي ذهب إليه الأصمعي في تحرير كلمة الورق وتعيين المراد بها في حديث

(١) الاصبغيات ص ١٢٣ .

عرجة هذا ، كان في هذا النص دليل صريح على أن هذه الكلمة كانت مستعملة ، منذ ذلك العصر ، في معنى الرق الذي يكتب فيه .

ولكن ما ذهب إليه الأصمعي في ضبط هذه الكلمة وتحرير المراد منها لم يبينه - كما هو ظاهر - على رواية يرويها ، بل على استنتاج يستنتجه مما يعتبره في الفضة وأنها لا تنتن فإذا لم يكن هذا الاستنتاج متعيناً فلا قيمة له ، كما أنه إذا سقط ذلك الاعتبار الذي يبنى عليه استنتاجه هذا فقد سقط ذلك الاستنتاج وبطل ما ذهب إليه ، وبقيت كلمة الورق في هذا النص مكسورة الراء ، بمعنى الفضة . والواقع أن هذا الاعتبار الذي يبنى عليه الأصمعي استنتاجه لم يسلم له ، فقد عقب عليه القتيبي بقوله . « وكنت أحسب أن قول الأصمعي إن الفضة لا تنتن صحيحاً حتى أخبرني بعض أهل الخبرة أن الذهب لا يبليه الثرى ، ولا يصدئه الندى ، ولا تنقصه الأرض ، ولا تأكله النار ، فأما الفضة فإنها تبلى وتصدأ ويعلوها السواد والنتن ^(١) . »

فقد سقط ذلك الاعتبار كما نرى ، وسقط بذلك استنتاج الأصمعي ، فقد سقطت الشبهة إذن . وبقي ذلك الفرض قائماً لا اعتراض عليه ، وهو أن كلمة الورق لم تعرف بمعناها الغالب الشائع المتعارف لا في العصر الجاهلي ولا في عصر صدر الإسلام إذا صح استقصاؤنا .

ثم تمضي بعد ذلك فترة أخرى تنفق فيها هذه الكلمة بهذا المعنى ، فيما بين أيدينا من الآثار الأدبية المختلفة فلا نظير بشيء . ولكننا لا نكاد نؤغل قليلاً بعد ذلك حتى نراها شائعة ذائعة ، تملأ الأفواه وترددها المجامع ، وقد اشتقت منها كلمة « التوريق » وكلمة « الوراقة » للدلالة على تلك الصناعة ، وكلمة « الوراق » لمخترف الوراقة ، وحتى نرى

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣ : ٢١٨ ، ط النجدي ، القاهرة ، ١٢٢٢ هـ . وانظر :

لسان العرب مادة : (ورق) .

أسواق الوراقين ودكاكين الوراقين ، تمثل صورة بارزة من صور الحياة في الأمصار الإسلامية ، وتصبح عنصراً خطيراً الأثر في الحياة العلمية والأدبية ، وحتى نرى هذه الكلمة قد غلبت على سائر الكلمات التي كانت مستعملة من قبل للدلالة على المادة التي يكتب فيها ، فضممتها إليها ، وأدرجتها في عمومها ، وصارت تدل عليها جميعاً دلالة واحدة . وبهذا كان لها ذلك العموم الذي أشرنا منذ قليل إليه .

ويتتبع هذه الكلمات ، وتعرف ما تنطوي عليه كل منها من دلالات ، نستطيع أن نتبين كثيراً من الوجوه والأطوار في تاريخ الورق والوراقة . وأحسب أنه يكفينا من ذلك أن نتتبع هذه الأصول الخمسة ، وهي : الصحيفة ، والرق ، والمهرق ، والقرطاس ، والكاغد .

— ١ —

فاما الصحيفة فهي من الكلمات العامة التي ينطوي تحتها أكثر من صورة ، وتختلف دلالتها باختلاف العصور ، كما يتغير مفهومها بتغير السياق واختلاف الملابسات . وقد جاءت في القرآن ، في صيغة الجمع ، في غير موضع :

« وقالوا لو لاياتنا بآية من ربه ، أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ^(١) » ، أو لم ينبا بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفي ^(٢) » ، « إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ^(٣) » ، « بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ^(٤) » ، « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة ^(٥) » .

ولا ريب أن صحف موسى في هذه الآيات هي التي أشار إليها القرآن في مواضع

(١) سورة طه ، آية : ١٣٤ . (٢) سورة النجم ، آية : ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) سورة الأعلى ، آية : ١٨ ، ١٩ . (٤) سورة المدثر ، آية : ٥٢ .

(٥) سورة البينة ، آية : ٢ ، ٣ .

أخرى ، وسماها بالألواح ، في قوله تعالى :

« وكتبناه في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ^(١) » ، « ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بثما خلفتموني من بعدي ، أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ^(٢) » ، « ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ^(٣) » .

وإذن فقد كانت الصحيفة تطلق أحياناً بمعنى اللوح ، ومادة اللوح الخشب ، كما ينص على ذلك أهل اللغة ، وكما يستفاد من قوله تعالى في التعبير عن السفينة : « وحملناه على ذات ألواح ودسر ^(٤) » .

وجاءت الصحيفة أيضاً في الشعر الجاهلي ، في مثل شعر المتلمس عن الصحيفة المنسوبة إليه ، كقوله :

أودى الذي علق الصحيفة منها ونجا حذار حياته المتلمس
ألق الصحيفة ، لا أبالك ! إنه يخشى عليك من الحباء النقرس ^(٥)

وإذا كنا لا نستطيع أن نعرف من هذا الشعر كيف كانت صحيفة المتلمس هذه ، وأي شيء كانت مادة الصحف في ذلك العهد ، فقد جاء في شعر المتلمس نفسه ما يشير لنا إلى هذا ، وذلك إذ يقول في إحدى قصائده التي قالها في هجاء عمرو بن هند ، بعد لحاقه بالشام :

ورهننتي هندا ، وعرضك في صحف تلوح كأنها خلل ^(٦)

(١) سورة الاعراف ، آية : ١١٥ .

(٢) سورة الاعراف ، آية : ١٥٠ .

(٣) سورة الاعراف ، آية : ١٥١ .

(٤) سورة القمر ، آية : ١٣ .

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ١٣٢ ، ط دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٥ .

(٦) الأغاني ٢١ : ١٣٥ .

والخلل هي جفون السيوف ، وكل جادة منقوشة خله ، كما يقول صاحب اللسان
وإذن فقد كانت مادة الصحيفة في عهد المتلمس الجلد .

وقد ظلت هذه هي صورة الصحيفة إلى ما بعد الاسلام ، كما يدل على هذا إطلاق كلمة
« المصحف » على مجموع الصحف التي كتب القرآن فيها ، فانما كان القرآن يكتب على
الرقوق وحدها ^(١) . ثم كما قد يفهم من هذه العبارة التي قالها الجاحظ على لسان أحد
بخلائه ، في سياق حديثه عن استخراج وجوه المنفعة من الكساحية : « وما كان من
الصحف فلهوس الجرار ^(٢) » ، فانما هو الجلد الذي يتصور غناؤه في هذا . وكذلك
يقول أبو عبد الله الاسكافي المتوفى سنة ٤٢١ : « والصحف ما كان من جلود ^(٣) » .
ثم لم تلبث كلمة « الصحيفة » أن أصبحت تطلق على القرطاس ، وهو الورق بمعناه
الخاص ، إلى جانب إطلاقها على الرق المصنوع من الجلد ، فيقول الزمخشري في التعريف
بها : « قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه ^(٤) » . ثم أصبحت بعد ذلك مرادفة لكلمة
القرطاس بذلك المعنى ، حين بطل استعمال الرقوق أو كاد ، كما نرى ذلك عند القلقشندي ،
إذ يقول : « القرطاس والصحيفة ، وهما بمعنى واحد ، وهو الكاغد ^(٥) » .

— ب —

أما الرق فهو نوع خاص من الورق مادته الجلد ، وقد هذب وعولج بالصناعة ، حتى
يصلح لما يراد له من الكتابة عليه . فهو — كما يقول المبرد ، فيما يحكيه القلقشندي عنه —
ما يرقق من الجلود ليكتب فيه . وقد رأينا في بعض مفهومات كلمة « الصحيفة » . وقد

(١) صبح الأعشى ٤ : ٤٧٥ ط المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩١٣ .

(٢) البخلاء ص ١٢٩ ط دار الكتاب المصري .

(٣) مبادئ اللغة ص ٩٠ ، مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ .

(٤) اساس البلاغة ، مادة (ص ح ف) . (٥) صبح الأعشى ٢ : ٤٧٤ .

وردت كلمة « الرق » في القرآن في قوله تعالى : « والطور وكتاب مسطور في رق منشور ^(١) » .

ويظهر أن صناعة الرقوق صناعة فارسية في أصلها ، وعلى هذا تدل هذه العبارة التي ذكرها الجهشيارى في التعليق على خبر أورده عن المنصور ، إذ استكثر القراطيس في خزائنه ، فهم ببيعها ، ثم بدا له فعُدل عن ذلك ، إذ « ليس يؤمن حادث بمصر فتقطع القراطيس بسببه » . قال الجهشيارى : « ولهذا العلة كانت الفرس تكتب في الجلود والرق ، وتقول : لا نكتب في شيء ليس في بلادنا ^(٢) » .

ح

فإذا انتقلنا إلى كلمة « المهرق » وجدنا نوعاً آخر من الورق ، أدل على الحضارة ، وأدخل في باب الصناعة ، وأوثق صلة بالحياة المترفة ، كما سنرى بعد قليل في تفسير هذه الكلمة . وهي لم ترد في القرآن كما ورد غيرها ، ولكنها جاءت في الشعر الجاهلي ، وخاصة في شعر الشعراء الذين اتصلت أسبابهم بالحيرة ، فنراها مثلاً في شعر الأعشى ، في مثل قوله :

ربي كريم لا يكدر نعمته وإذا يناشد بالمهراق انشدا ^(٣)

أو في مثل هذا البيت الذي ينسبه الصولي له :

وأنى ترد القول دار كأنها لطول بلاها والتقادم مهراق ^(٤)

كما نراها في شعر الحارث بن حازم ، إذ يقول في معلقته :

حذر الجور والتعدي ، وهل ينه تقض ما في المهراق الأهواء

(١) سورة الطور ، آية ١ — ٣ .

(٢) الوزراء ، والكتاب ، ص ١٣٨ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٨ .

(٣) ديوان الأعشى الكبير ، ص ٢٢٩ ، المطبعة النموذجية ، القاهرة ١٩٥٠ .

(٤) أدب الكتاب ، ص ١٠٦ ، ط السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ .

وإذا كانت كلمة المهرق في البيت الثامن من هذه الأبيات لا تؤدي أكثر من صورة بيانية مشهورة ، ولا تدلنا في سياقه على شيء من خصائص هذا النوع من الورق أو صفاته ، فإننا نستطيع أن نرى في البيتين الأخيرين شيئاً من الدلالة على بعض وجوه استعمال المهارق مما تختص به ، وهو تدوين الدين وتسجيل العهود والمواثيق . وذلك مصداق ما يذكره الجاحظ في بعض سياق كلامه عن الكتاب ، إذ يقول : « والمهارق ليس يراد بها الصحف والكتب ، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود وميثاق وأمان » (١) .

وإذن فنحن من « المهرق » بأزاء نوع خاص من الورق ، خصص بوجوده معينة من الاستعمال لا يعدوها إلى غيرها من سائر وجوه الكتابة . وقد يكون هذا التخصيص راجعاً إلى غلاء مادته وتكاليف صناعته حيث كان يصنع ، في بلاد الفرس ، وقد يرجع إلى قلته أو ندرته في الجزيرة العربية ، أو إلى الملابس الأولى التي لا بست دخوله إليها وأستعماله فيها .

وكلمة « المهرق » كلمة دخيلة على اللغة العربية ، وقد وجدت سبيلها إليها — كما وجدت المهارق سبيلها إلى البيئات العربية — في هذه الصلات الدائمة التي تربط بين العرب ومجاورينهم ، يقول الخطيب أبو زكريا التبريزي ، فيما كتبه شرحاً على أحد أبيات عارق الطائي ، من شعراء الحماسة : « والمهارق جمع مهرق ، وهو فارسي معرب . وكانت العرب تصقل الثياب البيض ، وتكتب فيها كتب العهود ، وما أرادوا بقاءه على الدهر » (٢) ، كما يقول في موضع آخر : « والمهارق الصحف ، واحداً مهرق ، فارسي معرب ، خرزة

(١) كتاب الحيوان ١ : ٧٠ ، ط مصطفى الباهي الحاي ، القاهرة .

(٢) شرح ديوان الحماسة ٤ : ١٣٠ ، ط المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ هـ .

يصقلون بها ثياباً كان الناس يكتبون فيها ، قبل أن تصنع القراطيس في العراق « (١) . أما صاحب اللسان فقد احتفظ لنا في كلامه عن هذه المادة بما يزيد هذا التفصيل بياناً ، ويشير إلى طريقة تهيئة هذا النوع من الورق ، إذ يقول في التعريف بالمهرق : « ثوب حرير أبيض ، يستقى بالصمغ ويصقل ، ثم يكتب فيه ، وهو بالفارسية « مهرة كرد » . وقيل « مهرة » لأن الخرزة التي يصقل بها يقال لها بالفارسية كذلك » .

فالمهرق — كما نرى — كلمة فارسية وصناعة فارسية . ولا عبرة بكلمة « العرب » في عبارة الخطيب التبريزي ، فقد تكون تصحيفاً أو سهواً ، كما قد يكون المقصود بها أهل العراق بعد الاسلام ، و « قبل أن تصنع القراطيس في العراق » . وإلى الفرس كان العرب ينسبون هذا النوع من الورق ، كما نرى في هذا البيت من شعر الحارث ابن حلزة :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كهبارق الفرس (٢)

على ان صاحب اللسان يورد في كلامه عن المهرق شطر بيت للحارث بن حلزة أيضاً ينسب فيه المهراق الى « الحبش » ، وكأنما هو عجز ذلك البيت ، وقد وضعت فيه كلمة « الحبش » مكان كلمة « الفرس » . فاذا كانت الرواية صحيحة ، وكانت هذه الكلمة في صورتها كما قالها الحارث ، فلعل ذلك يدل على أن الأحباش كانوا في بعض الحالات واسطة

(١) شرح القصائد العشر ، ص ٢٦٨ ، ط دار الطباعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ . ولم تكن

القراطيس تصنع بالعراق ، وإنما يريد بالقراطيس الورق أو الكاغذ .

(٢) للمضيات ، ص ٥٣ ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة . ١٩٢٦ .

انتقال « المهارق » من الفرس إلى العرب ، وبذلك وقعت نسبتها إليهم ، وتفسير هذا قريب يسير .

— ر —

وإلى جانب الرقوق المصنوعة من الجلد ، والمهارق المصنوعة من الحرير ، كان هناك نوع آخر من الورق ، أدل منها على الحضارة ، وأدخل منها في باب الصناعة ، وهو « القراطيس » . وقد ورد القراطيس في القرآن مفرداً ومجموعاً :

« ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » ^(١) ، « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجمّلونه قراطيس تبدونها وتمخفون كثيراً » ^(٢) .

وظاهر من هاتين الآيتين أن القراطيس كانت في ذلك العهد من أدوات الكتابة المعروفة في بلاد العرب ، وإنها كانت مما يتخذها اليهود لأنفسهم يكتبون فيها كتبهم المقدسة ، كما كانت السنة الفارسية أن تكتب كتب الدين في المهارق ، كما رأينا . على أن مما هو جدير بالملاحظة أن أولى الآيتين مكية ، فالحديث فيها عن أهل مكة ، ولهذا دلالة - فيما نحسب - على أن القراطيس كانت معروفة بينهم ، فحياتهم التجارية والصلوات التي أتاحتها لهم

(١) سورة الأنعام ، آية : ٧ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ٩١ .

هذه الحياة ، وصلتهم بالبيئات التي كانت تستعمل القراطيس ، كالشام مثلاً ، مما أتاح
للقراطيس أن تداخل — بشكل ما — حياتهم .

وطرفة يذكر القراطيس في معلقته فيسميه « قرطاس الشامي » ، وذلك إذ يقول :

وخذ كقرطاس الشامي ، ومشفر كسبت اليماني قدّه لم يجرّد

وهذه القراطيس التي صارت تطلق فيما بعد إطلاقاً تاماً على الورق في صورته المختلفة ،
كانت في ذلك العهد تعني نوعاً خاصاً منه ، يخالف الرقوق والمهارق ويتميز عنها تميزاً تاماً ،
فهي متميزة في صورتها وفي مادتها ، كما تتميز في مصدرها وفي الجهة التي تجيء إلى بلاد
العرب منها ، فلم تكن تجيء من الشرق من بلاد كسرى ، كما كانت تجيء الرقوق والمهارق ،
وإنما كانت تجيء من بلاد الشام وبلاد الروم ، وكان مصدرها الأول هو مصر بلد
الفراعين ، حيث ينبت ذلك النبات الذي يسمى بالبردي . وقد استطاعت الحضارة المصرية
منذ عهد موغل في القدم أن تستغل هذا النبات في صناعة ذلك النوع من الورق الذي جاء
فريداً في بابه . وقد افتنت في صنعه وتجويده بحيث يغالب الزمن وصروفه ، وأستطاعت
أن تكفل به حاجاتها الدينية والأدبية ، وأن تمضي به شؤونها السياسية والإدارية ، كما
أستطاعت أن تذيب به مكائنها في أنحاء العالم المتحضر ، حيث انتشر فيها ، وأصبح ضرورة
من الضرورات التي لا معدى عنها .

فلم يكن عجيباً إذن أن يعرفه العرب ، ولا سيما أهل مكة ويثرب ، وهم — كما نعلم —
أصحاب تلك المنزلة الظاهرة في التجارة القديمة ، وبلادهم تقع على أحد الطرق الكبرى
للقوافل التجارية التي تربط بين أجزاء العالم القديم .

وكلمة « قرطاس » التي عرف بها العرب ذلك النوع من الورق هي بعينها الكلمة

اليونانية التي تدل عليه : خرتاس (Khartés) ، وهي التي جاءت منها الكلمة اللاتينية Charta بذلك المعنى . وكذلك نقل الجواليقي والخفاجي أن هذه الكلمة غير عربية الأصل ^(١) .

وقد أنكر شارح معرب الجواليقي ، الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر ، هذا الرأي ، معلقاً على عبارة الجواليقي بأن « هذا قول شاذ لم يحكه غير المؤلف » . ولكن شذوذه — على فرض صحته — لا يمنع أنه قول صحيح صريح على الوجه الذي بينا ، من غير أن يدفعه أو يوهنه أن الكلمة قرآنية ، كما يقول الأستاذ الشيخ أحمد شاكر في تعليقه . ولم يجادل أحد من أهل اللغة في أن القرطاس يعني ذلك النوع الخاص من الصحف المتخذ من ودي مصر ، لا الصحيفة إطلاقاً ، كما يريد الأستاذ الشيخ شاكر أن يقول . كما لا جدال — فيما هو ظاهر — أن العرب إنما عرفوه من هؤلاء الروم الذين كانوا يستوردونه من مصر ، فمن الطبيعي الذي لا غضاضة فيه أن يكون العرب قد عرفوه ، منذ عرفوه ، باسمه الذي كان يطلقه هؤلاء الروم عليه ويعرفونه به ، كما عرفوا المهارق باسمها الفارسي . ولا فرق في هذا بين أن تكون الكلمة جاءت في القرآن أو لم تجيء فيه .

على أنه إذا كان العرب قد عرفوا القراطيس — كما رأينا — في جاهليتهم ، فليس يعني هذا شيوع استعمالها بينهم ، إذ لم يكن أسلوب الحياة عندهم يدعو إلى كثرة استعمال الورق ، إنما كان اصطناعهم إياها في نطاق ضيق محدود . ومن ذلك ما نراه من أنهم كانوا في معظم أحوالهم يكتبون — حين لا يكون من الكتابة بد — على هذه الأدوات البدائية المشتقة

(١) العرب ، ص ٢٢٦ ، ط دار الكتب المصرية ، شفاء الغليل ، ص ١٥٩ .

من بينهم ، كأكتاف الإبل والعسب والاضاف وما إليها . أما القراطيس فقد كانت - ولا ريب - بالقياس إلى هذه الحياة البدوية لونا من ألوان الترف ، وهيهات أن يكون للترف نصيب في البادية . وكذلك كان من الطبيعي أن يقتصر بالقراطيس - كما كان يقتصر بالمهارق والرقوق - على ما كان يعتبر من مظاهر الحياة المتحضرة ، من كتابة العهود وتسجيل المواثيق وتدوين الكتب المقدسة ، عند سرايمهم وأهل المنزلة الدينية الممتازة بينهم . أما ما عدا ذلك ففي تلك الأدوات البدائية القريبة اليسيرة ما فيه الكفاية .

وحسبنا في بيان هذا والدلالة عليه أن نذكر أن القرآن الكريم كان يكتب وقت نزوله على تلك المواد الأولية ، وظل مكتوباً عليها حتى اتجه أبو بكر الصديق إلى جمعه وضم بعضه إلى بعض ، ونسخه في الصحف . وقد كان ذلك الصنيع أمراً محتوماً لا بد منه ولا معدى عنه ، وعلى أن تلك الصحف التي كتب القرآن فيها لم تكن قراطيس ، وإنما كانت رقوقاً ، كما نجد النص على ذلك فيما أورده القلقشندي ، إذ يقول : « وأجمع الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن في الرق ، لطول بقائه ، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ » (١) . وأكبر الظن عندنا أنه كان لكل من هذين الاعتبارين الذين ذكرهما القلقشندي مكان في اتخاذ المسلمين الرقوق في ذلك الوقت لصحف المصحف دون القراطيس . فهي - ولا ريب - أبقى على الدهر ، وأصبر على عوادي الأيام ، ولا سيما في تلك البيئة ، وهي ، من ناحية أخرى ، أوفر عندهم ، ولا سيما في زمان أبي بكر ، قبل فتح مصر ، وفي إبان تلك الحروب التي جعلت الدولة الإسلامية الناشئة تشنها على دولة الروم صاحبة السيطرة على مصر ، منبت البردي ومصدر القراطيس . وقد كانت الشام - وهي المصدر المباشر للقراطيس في بلاد العرب ، كما رأينا - هي مسرح هذه الحروب إذ ذاك .

وفتح المسلمون مصر في أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، وبذلك أصبح أمر مصانع

(١) صبح الأعتى ٢ : ٤٢٠ .

القراطيس فيها إليهم . ومع ذلك ظل استعمال هذا النوع من الورق في الدولة الإسلامية محدوداً ، إذ كان ما يزال يحمل اعتباره القديم لدى العرب ، وهو انه صنف رفيع مترف بالقياس إلى الرقوق . وإن كانت ضرورات الحياة الجديدة في هذه الدولة الجديدة ، وحاجات التنظيم الإداري فيها ، ومقتضيات العلاقات السياسية المختلفة لها ، إلى غير ذلك مما أستحدث من شؤون ، مما يضاعف — بطبيعة الحال — الشعور بالحاجة إلى مثل هذا النوع من الورق ، إذ هو على الأقل أيسر تداولاً وأخف محملاً . ولكن أمر استعمال القراطيس ظل مرتبطاً بهذه الحاجة في أضيق حدودها ، وحيث لا يغنى عنها غيرها .

وينقل القلقشندي عن محمد بن عمر المدائني ، صاحب كتاب القلم والدواة ، « أن الخلفاء لم تزل تستعمل القراطيس امتيازاً لها على غيرها ، من عهد معاوية »^(١) . وفي هذا دلالة واضحة على أن صفة الترف ظلت ملازمة للقراطيس في الاعتبار العام ، حتى إن استعمال الخلفاء لها كان يعد من باب الامتياز الذي تمتاز به على غيرها ، كما يقول المدائني ، وبذلك ظلت الرقوق — كما كانت من قبل — المادة العامة الغالبة للصحف والكتابة ، كما ينص على ذلك ابن خلدون إذ يقول : « وكانت السجلات أولاً لا تتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد »^(٢) وقد استمر الأمر على ذلك أمداً غير قصير ، كما سنرى بعد .

ولم يغير فتح العرب مصر شيئاً من صناعة القراطيس فيها وتجارها ، فقد ظلت المصانع على شأنها في إنتاج هذا النوع من الورق ، كما كانت تنتجه من قبل ، وظلت بلاد الروم تستورده منها كما كانت تستورده من قبل ، وكانت — فيما يبدو — أكبر عميل لهذه المصانع . لم يتغير شيء فيما يتصل بهذه الصناعة بتغير الولاية على مصر وتبدل الحالة السياسية

(١) صبيح الأعتى ٦ : ١٨٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٧٠ ، المطبعة الشرقية ، ١٣٢٧ هـ .

فيها ، حتى لقد ظلت هذه القرايطيس محتفظة بطرازها القديم المنقوش في رءوسها منذ كانت مصر بلداً من بلاد المسيحية ، لم يتغير منه شيء ، كأن لم تنتقل الولاية على مصر إلى الدولة الاسلامية ، ولم يصبح الاسلام دينها الرسمي ، وبقي الأمر على ذلك زمناً ، إلى أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) ، وهو العهد الذي نضج فيه كيان الدولة السياسي ، وجعلت تنتبه إلى تحقيق مظاهر سيادتها المختلفة . وإذ ذاك أخذت الدولة تلتفت إلى هذه القرايطيس وتوليها شيئاً من العناية ، فأتجهت إلى أن يكون طابعها طابعاً إسلامياً ، باعتبارها صناعة إسلامية ، إلى جانب كونها صناعة مصرية ، وهي بذلك إنما تحقق ذلك المظهر من مظاهر سيادتها ، بعد أن أغفلته أو غفلت عنه هذا الزمن الطويل ، إذ « كانت الأقباط - كما ينقل عن عوانة بن الحكم - تذكر المسيح في رءوس الطوامير ، وتنسبه إلى الربوبية ... وتجعل الصليب مكان (بسم الله الرحمن الرحيم) » .

ذلك كان طراز القرايطيس المصرية منذ العهد المسيحي وسلطان الدولة الرومانية ، لم يتغير إلى أيام عبد الملك بن مروان ، وقد بلغت الدولة في أيامه غاية نضجها كما قلنا ، وأستكملت سائر مقوماتها ، فكان من الطبيعي إلى تنسبه إلى ذلك الشذوذ ، وتغير ذلك الفكر . وكذلك طبعت الدولة القرايطيس المصرية في ذلك العهد بطابعها الاسلامي . فجعلت مكان الطراز المسيحي القديم الذي يشير إليه عوانة بن الحكم طرازاً يعارضه ، يرمز للعقيدة الاسلامية ويعبر عن الأصل فيها . وكان هذا الصنيع الذي اتخذته سبباً في نشوب أزمة بينها وبين دولة الروم ، كما كان سبباً في تحقيق مظهر آخر من مظاهر سيادتها ، على النحو الذي نراه في القصة التي يحكيها البلاذري ، إذ يقول :

« قالوا : كانت القرايطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، ويأتي العرب من قبل الروم الدناير . فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذي يكتب في رءوس الطوامير ، من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله ، فكتب إليه ملك الروم :

نكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فان تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه . قال : فكبر ذلك في صدر عبد الملك ، فكره أن يترك سنة حسنة سنها ، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقال له : يا أبا هاشم ، إحدى بنات طبق ! وأخبره الخبر . فقال : أفرخ روعك يا أمير المؤمنين . حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوه في الطوامير . قال عبد الملك : فرجتها عني ، فرج الله عنك . وضرب الدنانير ^(١) .

ومنذ ذلك الوقت طبعت القراطيس المصرية بالطابع الاسلامي ، وحققت الدولة الاسلامية بذلك مظهراً من مظاهر سيادتها ، كما أتاحت لها تلك الأزمة أن تحقق مظهراً آخر من مظاهر هذه السيادة في ناحية أخرى هي ناحية « النقد ، أو السكة » ، فصار لها نقدها الخاص بها ، بعد أن حرمت دنانير الروم في بلاد الاسلام ومنع التعامل بها . وقد كان من الآثار التي ترتبت على طبع القراطيس بالطابع الاسلامي ونشوء تلك الأزمة بين الدولتين بسبب ذلك أن امتنع تصدير القراطيس زمنياً إلى بلاد الدولة الرومانية ، وكان ذلك - ولا ريب - أسراً شديداً على الروم ، لأن صناعة الورق كانت حتى ذلك الوقت - فيما يبدو - احتكاراً مصرياً خالصاً ، إذ لم يكن الورق الصيني قد دخل بعد في نطاق التجارة العالمية .

— د —

ظلت صناعة الورق في الدولة الاسلامية صناعة مصرية خالصة ، طوال القرن الأول وأوائل القرن الثاني ^(٢) ، حتى أخذ الورق الصيني ، وهو ما يسمى بالكاغد ، مكانه إلى جانب القراطيس المصري ، وأصبح صناعة من الصناعات الاسلامية .

(١) فتوح البلدان ، ص ٢٤٩ ، الطبعة المصرية ، ١٩٢٢ .

(٢) ظاهر اننا نغني بلورق هنا ما عدا الرنوق والمهارق .

وكان ذلك الحدث الخطير في تاريخ الحضارة الاسلامية بعد أن امتدت فتوح المسلمين إلى ما وراء النهر ، وتاخمت بذلك الدولة الاسلامية بلاد الصين ، فكانت هذه المتاخمة سبباً في بعض المناوشات والمعارك التي كانت ما تزال تنشب بين الخاميات الاسلامية في ما وراء النهر وبين أهل الصين ، فنشأ بذلك نوع من الاتصال بين هؤلاء وأولئك ، ثم كان من آثار هذا الاتصال ان انتقلت صناعة الورق الصيني من بلاد الصين إلى بلاد المسلمين .

وقصة هذا الانتقال أن جماعة المسلمين رجعوا في إحدى هذه المناوشات بطائفة من الأسرى ، اسكنوهم سمرقند ، قسبة بلاد الصغد ، فاستقروا فيها ، وكانوا من صناع الورق الصيني ، فأنشأوا بها مصنعاً لصناعة ذلك النوع من الورق ، كما يذكر ذلك الثعالبي عن صاحب كتاب المسالك ، إذ يقول : « إنه وقع من الصين إلى سمرقند ، في سبي سباهم زياد بن صالح ، من اتخذ الكواغيد بها ، ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة ، حتى صارت متجراً لأهل سمرقند ، فعم خيرها والارتفاق بها الأفاق ^(١) » .

وهكذا دخلت العربية كلمة جديدة ، هي كلمة « الكاغد » - ويقول هيار Huar ، في الفصل الذي كتبه تحت هذه الكلمة في دائرة المعارف الاسلامية ، إنها فارسية لعلها من أصل صيني - دالة على ذلك النوع من الورق المصنوع بذلك الاسلوب الخاص من الحشائش والالياف وانواع العشب الصيني ، كما كانت تطلق كلمة « القرطاس » على ذلك النوع الآخر المصنوع من البردي . وكما انتهى الأمر بكلمة « القرطاس » إلى أن فقدت مدلولها الخاص ، واصبحت اطلاقاً عاماً على الورق ، كذلك كان شأن كلمة « الكاغد » ، حتى نرى الفيروز بادي يقول في التعريف بها إنها القرطاس ، وحتى نرى هيار Huar في الفصل الذي أشرنا إليه ، وقد عقده للكلام عن الورق عامة ، يضع هذا الفصل تحت عنوان « الكاغد » .

(١) لطائف المعارف ، ص ١٢٦ ، ط بربل ، ليدن .

وقد لا يكون من اليسير أن نعين على وجه الدقة والتحقيق التاريخ الذي اجتازت فيه صناعة الكاغد حدود الصين إلى بلاد المسلمين ، بالرغم مما استظهرناه في اجمال منذ قليل . وقد كان هذا التاريخ موضع خلاف عند المتقدمين ، كما نرى ذلك فيما ذكره ابن النديم عنه إذ يقول : « فاما الورق الخراساني (ويعنى به الكاغد ، كما هو ظاهر) فيعمل من الكتان . ويقال إنه حدث في أيام بني أمية ، وقيل في الدولة العباسية ، وقيل إنه قديم العمل ، وقيل إنه حديث ^(١) » . إذ يخلص من النص أن المتقدمين ذهبوا ثلاثة مذاهب في ذلك التاريخ ، يرى احدها أن الكاغد قديم في خراسان ، أي قبل الاسلام ، ويرى الآخر أنه دخلها في أيام الأمويين ، ويذهب الثالث إلى أنه إنما دخلها بعد قيام الدولة العباسية . على أن النص الذي أوردناه قبل لصاحب المسالك والممالك عن الأسرى الصينيين الذين رجع بهم زياد بن صالح إلى سمرقند وأسكنهم بها يعين أنها صناعة محدثة ، وأنها إنما دخلت خراسان في هذه الظروف ، وفي خلال تلك الغارات والمناوشات الناشئة بين المسلمين وأهل الصين ، في هذه الفترة التي كان يتولى فيها هذه المناوشات ويقود هذه الغارات زياد بن صالح هذا . فمن عسى أن يكون هذا الرجل ؟ وفي أي وقت كان مناوشاته هذه ؟ هناك فيما وقع لنا ، فيما تتبعنا وتفحصنا ، غير واحد يحمل هذا الاسم ، غير أن الذي يغلب على الظن وترجحه القرائن أن المقصود به في نص صاحب المسالك والممالك هو زياد بن صالح الخزاعي ، أحد ثقباء الدعوة العباسية ، كما يذكر ابن جرير الطبري في حوادث سنة ١٣٠ . وكان هو الذي استخلفه أبو مسلم الخراساني على الصغد وأهل بخارى بعد أن اخضعهم ، وفرغ من بناء حائط سمرقند ، وكان ذلك سنة ١٣٤ . ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى ثار عليه ، وجمع حوله طائفة من خصومه ، فشخص أبو مسلم اليه . وانتهى أمر زياد بن صالح بأن قتل بيد أحد الدهاقنة ، سنة ١٣٥ .

(١) الدهرست . ص ٣٢ ، ط ممر .

هذا هو زياد بن صالح الخزاعي^(١)؛ فاذا صح ما رجحناه من أنه هو المقصود في ذلك النص - وتاريخ حياته على الصورة التي رأيناها يدعو إلى القول بأنه هو - كان لنا أن نقول في غير كبير تخرج إن تلك المناوشات التي كان من نتائجها ادخال صناعة الكاغد إلى خراسان، إنما كانت في خلال تلك الفترة القصيرة التي تولى فيها أمر الصغد، وكان فيها أميراً على سمرقند، فيما بين سنة ١٢٤، ١٣٥.

وبهذا نستطيع القول بأن هذه الصناعة قد انتقلت إلى بلاد الدولة الإسلامية في أوائل قيام الحكم العباسي، أي في الوقت الذي أخذت فيه الدولة الإسلامية والجماعة الإسلامية جميعاً تهيأان لاستقبال مرحلة جديدة من مراحل التطور الحضاري، في جميع صوره السياسية والاجتماعية والعلمية.

ولا ريب أن صناعة « الكاغد » أتاحت للحضارة الإسلامية مادة كان لا بد منها لهذه الحضارة التي أخذت في فترة قصيرة من الزمن تبسط اجنحتها وتمتد نشاطها وتستولي على شتى الميادين التي يمكن أن تتمثل فيها، كما أخذت تداخل حاجات الناس المادية والمعنوية مداخلة دائبة ملحة. فقد كان انتقال هذه الصناعة إذن إلى البلاد الإسلامية نوعاً من الاستجابة لهذه الحاجات الحضارية الملحة. وأكبر الظن أنه لو لم تهيء الاقدار لها أن تنتقل من بلاد الصين إلى بلاد المسلمين، على ذلك النحو الذي رأينا، وفي مثل تلك الملابس التي اتبعت لها، لكان لا بد لهذه الصناعة أن تستحدث استحداثاً وأن تبتدأ ابتداءً، فقد كانت هذه الحاجات في حقيقة الأمر أقوى قوة وأعنف الحاحاً وأشد تغلغلاً

(١) هناك شخصية أخرى تحمل اسم زياد بن صالح، هي شخصية زياد بن صالح الخارثي، وكان أميراً من أمراء الدولة الأموية، إذ كان أمير السكوة وقت قيام الدولة العباسية، وكذلك كان من قواد الشام في مؤتمرة واسط وقد خلط بين الشخصيتين واضح فهارس تاريخ الطبري، لجعلها شخصاً واحداً، وجمعها بهذا الاسم: زياد بن صالح النقيب الخارثي الخزاعي.

في نواحي الحياة ، من أن يمكن الاكتفاء في الاستجابة لها بالرقوق ، أو بما تقدمه مصر من القراطيس ، محدوداً بمحدود طاقتها التي تتوقف أول شيء ، بطبيعة الحال ، على تلك المادة الأولية التي تصنع منها ، وهي « البردي » المقصور نباته على بعض النواحي من أرض مصر ، كما تتوقف على غير ذلك من الاعتبارات الصناعية .

ومنذ تركزت في « سمرقند » صناعة الكاغد أصبحت من المدن المذكورة الكبيرة المنزلة في الدولة وفي أنحاء البلاد الإسلامية . وقد استطاعت أن تحتفظ بهذه المكانة زمنياً طويلاً . وسنرى فيما نستقبل من هذه الدراسة كيف كانت مصر في القرن الرابع تستورد الكاغد منها ، وما أبعد المسافة التي تصل بين مصر وبينها ، وذلك بالرغم من قيام كثير من المصانع التي تصنع الكاغد في أنحاء البلاد الإسلامية . ولكن كاغد سمرقند كان صنفاً مشهوراً ، وكان له من المزايا والخصائص ما كان يجعل كثيراً من الخاصة يؤثره ويحرص عليه .

وبإزاء الحاجات الحضارية المختلفة التي كانت تتضاعف باطراد ، كان من الطبيعي أن تصبح سمرقند قاصرة عن أن تكفيها وتفي بها . وبذلك قامت المصانع في كثير من أنحاء البلاد الإسلامية ، كما قلنا ، من العراق إلى الشام إلى الأندلس . وإن كنا لا نستطيع أن نتحقق ، على وجه الضبط واليقين العلمي ، متى بدأت صناعة الكاغد تتجاوز سمرقند إلى غيرها . وإنما غاية ما نملك القول به هو أن القرن الرابع شهد عدداً من مصانع الكاغد مبثوثاً في مختلف البلاد ، مما نرجو أن نعرض له بعد . أما قبل ذلك فليس لنا إلا ما ذكره ابن خلدون من أن الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي أنشأ صناعة الكاغد في بغداد على غرار ما رأي في سمرقند^(١) ، وهو قول لا نجد في أنفسنا الطمأنينة اليه ، كما سنفصل القول فيه في موضعه من هذا البحث ، إن شاء الله .

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٧١ .

ومهما يكن من أمر ، فقد أصبح الكاغد مادة من المواد الشائعة في الكتابة والتدوين ، كما أصبحت صناعته من الصناعات الإسلامية المنبثقة في نواحي البلاد ، وقد اتخذت أفاين مختلفة .

وفي أثناء ذلك كانت المنافسة التي امتحنت بها الرقوق والقراطيس من الكاغد منافسة جادة ، وكانت ما تزال تشتد شيئاً فشيئاً ، وقد أخذ شأنها يضعف في هذه المنافسة التي لم يستطيعا أن يصمدا لها ، لما كانت تمتاز به صناعة الكاغد من إمكانات صناعية لم تتح لها ، ثم لأن الكاغد كان يمتاز ، فضلاً عن ذلك ، ببسره وأنه أكثر ملاءمة للكتابة ، إذ كان على حد تعبير الثعالبي : « أحسن وانعم وأرقق وأوفق » .

وقد انتهت هذه المنافسة بالنتيجة الطبيعية لها ، ففضى الكاغد على الرقوق والقراطيس ، وانفرد بأمر الكتابة ، كما أصبح هو وحده الذي يطلق اسم الورق عليه .

الدكتور محمد طه الخاطري

للبحث بقية